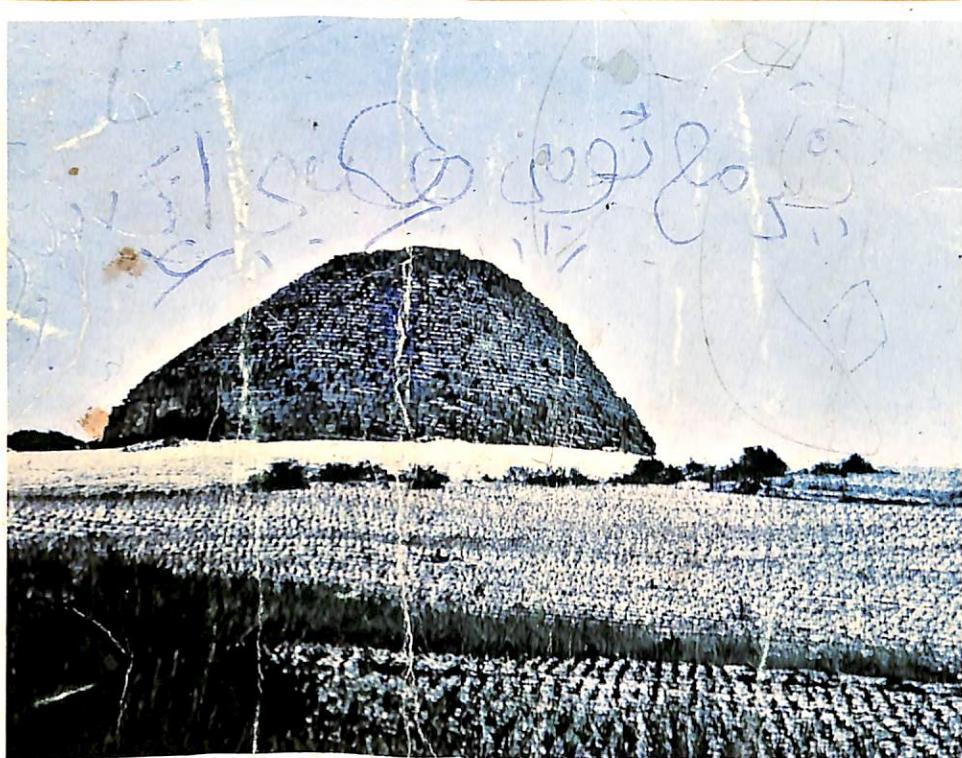


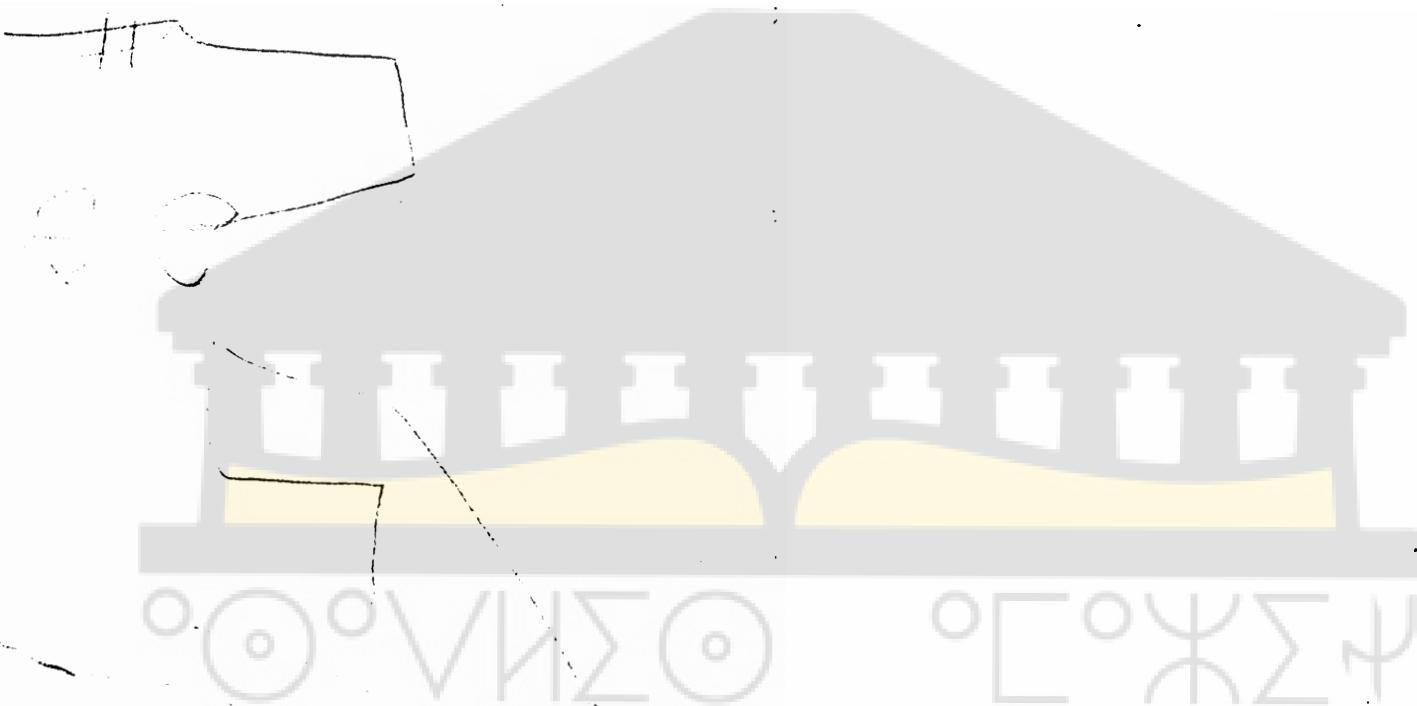
وزارة الاعلام والثقافة

الجريدة الملكية الموريتانية

العدد



مديرية الفنون الجميلة والآثار والمتحف



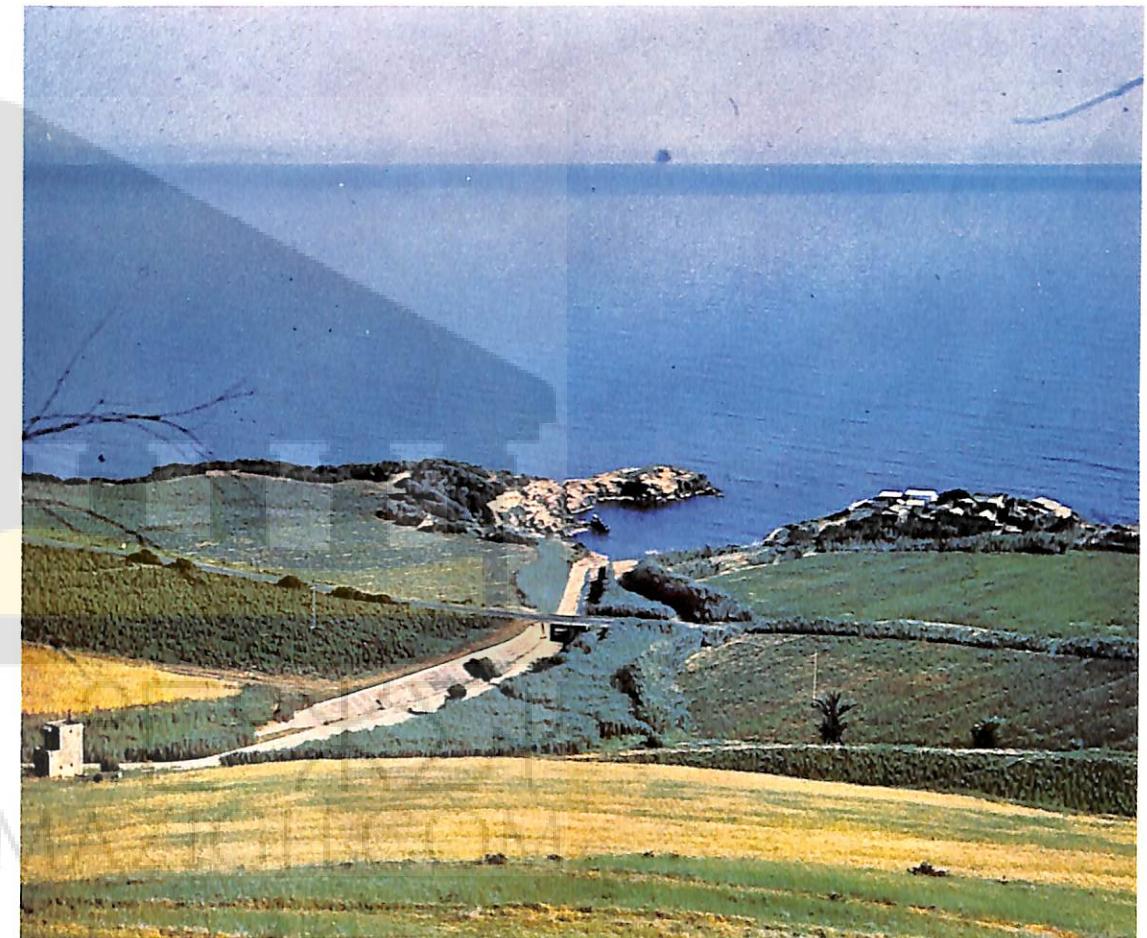
تأليف : منير بوشنافي
وتحريج عبد الحميد حاجيات

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الاعلام والثقافة

الخريطة المكانية الموريطنية

الاضلع

°○°ΣΙΛΛ°
WWW.ASDLIS-AM



مديرية المتاحف والآثار والمباني التاريخية
الجزائر 1979

التراث الأثري بالجزائر الضريح الملكي الموريطاني (1)

1 - الموقع :

يقع الضريح الملكي الموريطاني بين الجزائر وشرشال ، على قمة جبل من جبال الساحل . ويمكن التوجه اليه عن طريق الجزائر الى تبازة ثم شرشال ، عبر ربي ساحل الجزائر الغربي . حيث تنبت الكروم والخضر . وهذه المرتفعات ، التي تفصل بين شاطيء البحر في الشمال وسهل متيجة في الجنوب ، تشرف على الساحل مسافة حوالي 50 كلم .

أما الضريح الملكي ، فإنه يوجد على رأس احدى مرتفعات الساحل تعلو سطح البحر بقدار 261 متر . ويبرز لعيون الناظرين من سهل متيجة كله ، أي من البليدة الى حجوط . ومن مرتفعات بوزريعة ، المطلة على الجزائر ، كما يراه الملحون والصيادون من البحر ، ويهددون به في تقلاتهم بالبحر .

ومن أراد الذهاب الى الضريح ، فما عليه الا أن يغادر الطريق الوطنية بين قريتي بو اسماعيل وتبازة ، عند ضيعة « الصخرة المصفحة » ، ثم يصعد الى قمة الربوة ، حب اشارة لافتة المرور .

2 - الوصف من الخارج :

وإذا ما بلغ الزائر أعلى الربوة ، ارتقى اليه القبر الضخم ، على شكل اسطواني ذي صفائح يعلوه مخروط مدرج . ويزدان في

1 - التسمية الجديدة للقبر المدعو بالرومية هي قبر كلوباطرا سيليني زوجة يوبا الثاني .

« الرومي » عند العرب ، أي « البيزنطي » أو « الروماني » وكذلك برسم الصليب الذي سبق ذكره .

3 - ما كتب عنه :

ولقد تساءل الناس كثيرا ، في شتى الأزمنة ، حول حقيقة هذا الأثر التاريخي ، وهل كان يحتوي على كنز اتتهبت منذ زمان طويل ، أو لا زال يحتفظ بسره .

وقد ذكر المستشرق H. BERQUE هذا الأثر التاريخي ، في كتابه « الجزائر أرض فن وتاريخ » ، فقال : « لا زال قبر الرومية يشكل أسطورة تاريخية ولا زالت الأشباح تحيط به ، والأسرار تغمره ، مما جعله منبعاً لأنفاس رومانطية . ففي ليالي الشتاء يسمع أنين وهمسات في الرواق ، وتهتز الحجارة وتکاد تنطفئ الأنوار . فما أروعه منظراً لقصة من قصص والتر سكوت W. SCOTT وما أجملها حكاية ذات تکهنات مثل حكايات والس WELL'S أو أقاچیص روسيي ROSNY فضیح الرومية لا يزال يحمل في طياته مفاجآت عجيبة » .

ولقد أجريت ، منذ زمان طويل ، أبحاث أثرية بدأت بشكل فردي ، ثم أخذت طابعاً رسمياً . كما صدرت كتب عديدة حول الضريح الملكي وسواء أكانت تأليف خيالية أم أبحاثاً علمية ، فإنها كلها تحاول كشف النقاب عن سره . فقد تحدث عنه الجغرافي العربي البكري في كتاب المسالك والممالك ، كما ألف مارمول MARMOL أحد ضباط جيش شارل الخامس الذي زار شمال إفريقيا بعد أن أسر بتونس مدة ثمانية سنوات ، كتاب « وصف عام لأفريقيا » نشره سنة 1573 بغرناطة ، ثم سنة 1579 بمالقة ، فذكر في الفصل 34 من الباب الخامس ، قبر الرومية ، وزعم أن بنت الكونت يوليان هي التي دفنت فيه ، وأن ملك القوط تعدى على

دائرته ، يستعين عمود مرسوم محللاً بتيجان ايونية ، تحمل افريزا ، وقد جعل هذا كله على قاعدة مربعة ، ضلعها 40x63 متراً . وهذه القاعدة المبلطة بنيت فوق حجرية تتالف من حبائص صغيرة موصولة بنوع من الملاط مصنوع من تراب الناحية الأحمر . وهذا المبني موضوع على سلسلة من الدرج المبنية بالصخور . محيط دائرة 1850 متر ، ويبلغ قطر دائرة 60x90 متراً ، وعلوه 40x32 متراً .

أما المخروط فيتألف من 33 درجة ، علو كل منها 580 متراً ، وينتهي أعلى بسطح .

ويوجد أمام باب المشهد ، آثار لبناء يبلغ طوله 16 متراً ، وعرضه 6 أمتار ، كان يستعمل كمعبد أو ضريح .

وإذا شاهدته عن بعد ، خيل إليك أنه خلية نحل عظيمة ، أو وثيمة تبن . ولكن حينما تدنو منه ، تشعر بعظمة هيكله . ثم إن لونه يتغير حسب الفصول ، وحسب ساعات النهار ، فهو تارة يميل إلى أصفرار جميل ، وتارة أخرى يتخد لوناً رمادياً أو تعلوه زرقة عندما يخيم حوله الضباب .

ويمتاز الضريح بأربعة صفائح من حجر ، على شكل شبه منحرف ، هي أربعة أبواب وهي مقابلة للجهات الأربع علوها 90x60 سم وتحيط بها إطار ذو نقوش بازرة يتراءى منها رسم شبيه بالصلب ، مما جعل بعض الباحثين يعتقدون أنه مبني مسيحي ، استناداً على ذلك الرسم الوارد على شكل صليب . وهذا خطأ . وقد قيل أن هذا الرسم الذي أول تأويلاً باطلاع كان السبب في تسمية المشهد باسم « قبر الرومية » .

فهذا المبني لا يمت بأي صلة إلى المسيحية ، وإذا كان الناس يدعونه بهذا الاسم ، فقد تفسر هذه النسبة بمدلول مفردة

وفي القرن الثامن عشر أمر الداي بابا محمد باجراء «حفريات» أخرى قصد البحث عن الكنوز ويحكي أن العمال ، الذين استخدمتهم لذلك لم يستطيعوا متابعة عملهم اذ « طردتهم براغيث كبيرة مثل الطيور » . وتذكر مصادر أخرى أن آمال الداي لم تتحقق وأن العمال لم يعودوا الا بقطع الرصاص التي تصل بين الحجارة .

وقد تحدث القصصي بيار بونوا Pierre Benoit عن الضريح الملكي، في كتابه « لاطلنتيد » ، فقال : « يوجد هرم عجيب من الحجارة ، جنوب شرمال ، غربي وادي ماء الزعفران على قمة ربوة تبرز في الصباح فوق سحب مitiجة الوردية ويسميه الأهالي قبر الرومية فهناك دفت كلوي باطرا سيليني ، بنت أنطونيو وكلوي باطرا ، وجدة أتنيينا ورغم أن هذا الضريح يقع في الطريق التي يسلكها الغزاة ، فإنه لا زال محظوظاً بكنوزه ولم يهتم أحد إلى البيت الذي أودع فيه الجثة في التابوت الزجاجي » .

أما الحفريات المنظمة الأولى . فقد أجريت تحت اشراف أدريان باربروجير BERBRUGGER من سنة 1865 الى 1866 ، على نفقة الأمبراطور نابوليون الثالث . وكان باربروجير آنذاك « مفتشا عاماً للآثار التاريخية والمتاحف الأخرى بالجزائر » . وحاول باربروجير البحث عن المعزبة . فقرر استعمال مسبر شبيه بالذى تحفر به الآبار في الصحراء . وبعد جهود متواصلة ، دامت أربعة أشهر ، سقط المسبر فجأة إلى ما يبلغ نسبة 26% من الأمتار ، وذلك أنه مر بمكان فارغ

وحيينذ حفر ثق تحت الباب الوهمي بالجهة الشرقية ، للوصول إلى ذلك المكان الفارغ ، فاكتشف ، لأول مرة في العصر الحديث ، دهليز واسع ، يؤدي من جهة إلى الباب الحقيقي الواقع تحت

شرف هذه الاميرة البارعة الجمال ، فعم أبوها على استدعاء العرب ، ليثار مما أصاب ابنته .

وقبل رحلة مارمول بسبعين وخمسين سنة ، كتب أحد أمراء تنس رسالة إلى قائد بقشتالة ، ذكر فيها قبر الرومية .

ثم في سنة 1738 م ، ضبط موقع الضريح الملكي طوماس شو T. SHAW الذي كان دكتوراً في الالهيات ، وشغل منصب دينياً مدة 12 سنة بالبعثة الانجليزية في الجزائر ، وذكر أنه يقع على بعد أربعة فراسخ في الشمال الشرقي لمدينة القليعة .

وتشير بعض الأساطير العجيبة إلى كنوز عظيمة يحكي أنها كانت مدفونة في هذا الضريح، وأن جنية تدعى هلولة ، كانت تحرسها

ويزعم بعضهم أن هناك رقى سحرية ، تمكّن من الحصول على ثروة كبيرة . كما يحكي أن راعياً لاحظ أن أحد بقراته كانت تغيب كل ليلة، ثم ترجع في الصباح وتلتحق برفيقاتها فعم ذات يوم على اتباعها ، فلما انصرفت في المساء ، رآها تتوجه نحو الضريح ، وتدخله من باب ثم أغلق الباب فوراً بعد دخولها . وفي اليوم التالي تعلق بذنب البقرة ، فتمكن من الدخول معها . ولما خرجت من الضريح في الصباح خرج بنفس الطريقة ، وبعد أن أخذ معه كثيراً من الذهب ، وأصبح أغنى رجل في الناحية .

4 - التنقيبات الأثرية :

وقد ذاعت هذه الأساطير بين الناس ، إلى حد أن الاتراك ، الحاكمين للبلاد ، كانوا على علم بها . وقد أقدم الباشا صالح رايس ، سنة 1555، على تدمير هذا الضريح العتيق ، عساه يجد في أنقاضه ، الكنوز التي كان يتحدث عنها الخاص والعامل . واستعمل المدفع لذلك فلم يصل إلى أكثر من العاشر بعض الأضرار بالباب الوهمي بالجهة الشرقية .

ويلي الدهلiz الثاني ، الرواق المستدير ، الذي يتوصّل إليه بمرقى ذي سبع درجات ، ويبلغ طول هذا الرواق المقبب ، الذي يتلو المرقى ، 141 متر . وعرضه مترين ، وعلوه 40ر2 من الأمتار . ولعله كان يضاء بمصابيح كانت توضع في 51 مشكاة منحوتة في الحائط ، وتبعـد كل واحدة عن الأخرى بمسافة 3 أمتار .

وقد بني هذا الرواق على السطح المربع الذي يحمل القبر كله ، بينما يقع بهو الأسود في طبقة سفلية . أما الرواق ، فإنه ذو شكل مستدير ، وهو يدور ، من الجهة اليمنى نحو اليسرى ، فيرسم دائرة تكاد تكون تامة ، ويبيّن ذلك من الباب الشرقي ، ثم يمر بالأبواب الوهمية الشمالية والغربية والجنوبية . وبعد هذا المكان ، يتوجه الرواق نحو مركز البناء فيصل إلى باب موّجه نحو الشرق وملحق بسلفة تؤدي إلى معزبة صغيرة طولها 40ر4 أمتار وعرضها 58ر1 من الأمتار وعلوها 3ر27 من الأمتار .

ثم يمر الزائر بدهليز وطيء ، وبباب آخر ، ذي سلفة ، فيصل إلى معزبة أخرى ، طولها 40ر4 م وعرضها 3ر06 م وعلوها 43ر3 م . وهاتان المعزبتان على شكل مقبب ، وهما موجهتان من الشمال إلى الجنوب . أما المعزبة الثانية المسماة خطأ بالغرفة المركزية ، فهي مزدانت بثلاث كوات نحتت كل واحدة منها في أحد الجدران الواقعة شمالاً وجنوباً وغرباً .

نحن الآن في قلب البناء ، ولم يعثر الباحثون على شيء من الكنوز التي طالما تحدث عنها الناس ، وقد يشعر الزائر بشيء من الأسف حينما يعتبر ذلك البناء الهائل الذي لا يقل حجمه عن 80,000 متر مكعب ، وحينما يفكـر بما شاهده فيه من دهلـيز ورواق ومعازـب . ولقد وجد باربرـجير جميع الأبواب محطـمة ، ولعل ذلك يرجع إلى العـهد القديـم .

الباب الوهمي بالجهة الشرقية ، ومن جهة أخرى إلى غرفتين متوسطتين قد كسر بابـهما ، ولا يوجد فيـهما شيء .

وثبتـ أنـ بـابـ الضـريحـ الذـيـ بـحـثـ عـنـهـ الـبـاحـثـونـ مـنـذـ زـمـنـ طـوـيلـ، يـقـعـ فـيـ أـسـفـلـ الـمـشـهـدـ، تـحـتـ الـبـابـ الـوـهـمـيـ بـالـجـهـةـ الشـرـقـيـةـ . وـهـذـاـ الـبـابـ وـطـيـءـ وـضـيقـ، وـعـلـوـهـ 10r1ـ مـنـ الـأـمـتـارـ . وـكـانـ تـسـدـهـ صـخـرـتـانـ مـرـبـعـتـانـ، مـدـمـاـكـهـمـاـ، فـيـ مـسـتـوـيـ عـلـوـ مـدـامـيـكـ الصـخـورـ الـمـجاـوـرـةـ، فـلـمـ يـكـنـ فـيـ الـامـكـانـ تـمـيـزـ هـاتـيـنـ الصـخـرـتـيـنـ عـمـاـ حـوـلـهـمـاـ الـاـ بـكـيـفـيـةـ تـرـتـيـبـ الـمـوـاـصـلـ .

5 - وصف داخل الضريح :

ويجد الزائر نفسه عندما يجتاز بـابـ الضـريحـ أـمـامـ بـابـ بلاطةـ صـخـرـيـةـ – يـنـفـذـ دـاخـلـ فـرـضـةـ وـاقـعـةـ مـنـ أـعـلـىـ وـفـيـ الـجـوـانـبـ، فـكـانـ الـبـابـ – الـبـلاـطـةـ – يـرـفـعـ أوـ يـنـزـلـ عـلـىـ شـكـلـ مـسـلـفـةـ، بـوـاسـطـةـ عـتـلـةـ . وـقـدـ وـجـدـ بـارـبـرـيـجـ مـكـسـرـاـ مـثـلـ سـائـرـ الـأـبـوـابـ الـأـخـرـىـ .

أما الدـهـلـيزـ فـهـوـ وـطـيـءـ جـداـ، بـحـيثـ يـضـطـرـ المـاشـيـ فـيـهـ الـانـحـنـاءـ وـيـقـعـ تـحـتـ مـسـتـوـيـ الـأـرـضـ، ثـمـ اـنـهـ مـعـلـقـ بـسـلـفـةـ ثـانـيـةـ، وـفـيـ مـؤـخرـهـ تـوـجـدـ مـعـزـبـةـ طـولـهـ 33r5ـ مـ وـعـرـضـهـ 25r2ـ مـ وـعـلـوـهـ 3r20ـ مـ . وـقـدـ نقـشـ فـيـ الـحـائـطـ الـأـيـمـنـ، عـلـىـ الـحـجـرـ بـأـعـلـىـ بـابـ دـهـلـيزـ ثـانـ، صـورـةـ أـسـدـ وـلـبـؤـةـ . وـقـدـ نـسـبـ ذـلـكـ الـمـوـضـعـ إـلـيـ ذـلـكـ النـقـشـ فـسـمـيـ «ـبـهـوـ الـأـسـدـ»ـ . وـهـذـاـ النـقـشـ، الـذـيـ يـصـعـبـ تـأـوـيلـهـ هوـ الرـخـفـ الـوـحـيدـ الـذـيـ يـوـجـدـ فـيـ الـضـرـيـحـ . وـلـعـلـ الـقـدـمـاءـ كـانـواـ يـعـهـدـونـ إـلـيـ هـذـهـ الـحـيـوانـاتـ بـمـهـمـةـ حـرـاسـةـ الـضـرـيـحـ وـتـكـثـرـ هـذـهـ الصـورـ فـيـ آـثـارـ الشـرـقـ الـأـدـنـىـ الـقـدـيمـةـ .

6 - مشكل الغرفة الخفية :

وربما يجد الزائر نفسه في حيرة ، مما جعل كثيرا من الناس يطرحون الأسئلة حول الضريح ، ويقتربون الأوجبة عليها .

ففيما يخص الباب المستور ، قد يتساءل الزائر : هل كان ذلك مخافة تعودي اللصوص ، أم امثلا لاعتقادات وتقالييد قديمة ، والغالب على الظن أن الرواق خصص لإقامة الحفلات الدينية عند دفن الأموات ، مثلما كان يجري به العمل عند المصريين في الأهرام .

هذا وقد قام السيد كريستوفل CHRISTOFLE المهندس المعماري السابق للآثار التاريخية ، قبل الاستقلال ، بأعمال ترميم هامة في واجهة الضريح التاريخية ، فكان لهذه الاصلاحات أجمل الأثر ، وبالاضافة الى أعمال الترميم والاصلاح فان السيد كريستوفلتابع الأبحاث الأثرية داخل المبنى . وقد أودع بعض نتائج أبحاثه في تقاريره ، وفي الدراسة التي كتبها عن الضريح الملكي .

ومن جهة أخرى ، فقد طرحت مشاكل أخرى عديدة حول الغرفة المركزية ، وهل هي الغرفة التي وضع فيها رفاة الدفين . وقد أبديت اعترافات كثيرة لهذا الاعتبار ، منها ضيق المكان بالنسبة لضخامة المبنى ، وفقدان كل المدابي الجنائزية التي تودع عادة في مثل هذه الأمكنة من أضرحة وغيرها ، وأن الأبواب المفضية الى الغرفة تؤدي الى ممر ضيق جدا .

واذا فرضنا أن المبنى كان يحتوي على رماد الجثث المحرق ، فإن ذلك الرماد قد يكون موضوعا في الكوات الثلاث المنحوتة في الجدران ، كما يمكن أن تكون هذه الكوات لأجل المصايح أو القناديل .

وهناك سؤال طرح مرارا عديدة : هل يحتوي القبر ، مثلما يوجد في الآثار المصرية ، على بيت خفي لا يصل اليه أحد ، بعد

عملية الدفن ، مع وجود غرفة أخرى بجانبه لاقامة الطقوس الموجهة للأموات كان يذهب الناس اليها في ظروف خاصة ؟ ان هذا السؤال مطروح منذ عرف الناس داخل المبني .

ولا زال الكثير يصدقون هذه الافتراضات والأساطير ، ويأملون أن يكون هذا القبر حاملا في طياته للمفاجآت العجيبة .

ولقد كان هذا المبني عرضة لمحاولات اللصوص ، منذ زمن طويل ، ولاشك أن المحاولات الأولى ترجع الى العهد القديم . ولم يتأخر بعضهم عن اجراء « حفريات » موجهة من الرواق الداخلي ، نحو داخل المبني ، بغية العثور على « الغرفة الخفية » المزعومة ، فهناك حفر ، على شكل غيران المناجم ، كان الهدف من حفرها البحث عن الكنوز التي تتحدث عنها الأساطير . فهذه احدى تلك « الحفريات » يبلغ طولها 7 أمتار ، تتطرق من بهو الأسود ، وتتوجه نحو وسط المبني . وهذه أخرى . في الجهة الغربية ، تبدأ من الرواق ، وتتفصل عنه على شكل زاوية قائمة ، ويبلغ طولها 16 مترا .

ولعل هذه « الحفريات » التي لا زالت آثارها ماثلة للعيان الى عهدها ، كانت خطيرة جدا لأن عملية الحفر كانت تقع عبر صخور عظيمة ، للوصول الى مركز المبني ، ولا يجد الباحث الأثري فيها ، من الفوائد ، الا استيانة الهيكل الداخلى للقبر : فالمبني المستدير يتتألف من صخور كبيرة مربعة ، ومن مواد صغيرة ، بخلاف مبني المدغاسن MEDRACEN فان هذا الأخير مشحون بممواد مختلفة الحجم ، اتخدت من شحنة الحجارة او من موارد خارجية .

وقد ترك أولئك الباحثون عن الكنوز أشياء توصل الى تاريخها بدقة : وهي نقود ترجع الى القرنين الرابع والخامس للميلاد ، وقطع خزفية من زمان متأخر .

ثم خليج لاتوروس ، ونهر سردايال ، ومن هنا الضريح العام للأسرة الملكية .. ثم ايكوزيوم » .

ويجدر باللحظة أن هذا المؤلف يكتفي ، في وصفه لساحل شمال أفريقيا ، بذكر ما ورد في كتاب أقدم ، ينسبه سطيفان فرال إلى فارون Varon المتوفى سنة 27 ق.م. ، مع زيادات قليلة.

والنظيرية التاريخية التي يسئل إليها أكثر الناس ، هي التي تنسّب بناء الضريح الملكي إلى الملك يوبا الثاني وزوجته كيلوباطرا سيليني ؛ بنت كيلوباطرا الشهيرة (ملكة مصر) وأنطونيو . واتفق المؤرخون على اعتبار يوبا الثاني ملكاً مثقفاً ذا تذوق للفنون . وقد جلب إلى عاصمه شرشال تحفًا فنية اقتناها من بلاد اليونان . وكان للأمبراطور الروماني أغسطس AUGUSTE الفضل في تملكه بموريطنانيا ، مدة طويلة من سنة 25 ق.م. إلى سنة 23 ب.م. .

فإذا كان القول الوارد حول « الضريح العام للأسرة الملكية » يرجع إلى فارون ، فلا يسكن الأخذ بالنظيرية التي تنسّب بناء القبر إلى يوبا الثاني . أما إذا لم يثبت هذا القول لفارون ، فالراجح أن يكون بناء القبر في عهد يوبا الثاني .

وقد اختلف المؤرخون في ذلك منذ بداية القرن العشرين . فمنهم من يفضل الحاق بناء القبر بالملك يوبا الثاني . ومنهم من يرجع بناءه إلى قبل هذا الملك بكثير . وشذ عن الجميع المؤرخ المشهور رومانيي ROMANELLI الذي يرى أن القبر بنى في عهد متأخر أي في القرن الخامس أو السادس للميلاد ، وهو يعتقد أنه شيد على منوال الضريح المستدير ، الذي بناه الامبراطور هادريان في روما .

وترجع المحاولات الأولى للدخول إلى القبر إلى زمان بعيد . وعلى كل ، فإنها تقع قبل الفتح العربي ، وقد تراكم التراب حول الباب الصغير الواقع في مستوى أسفل من سطح الأرض ، وسرعان ما غطا وحجبه عن أعين الناس .

7 - متى بني قبر الرومية ومن أمر بنائه ؟

ومن الأسئلة التي يطرحها هذا المبني ، سؤال تاريخي هام : متى كان تاريخ بنائه ، ومن أمر بتشييده ؟ والقبر لا يحمل أي نقش يثبت تاريخه ولا يمكن الاعتماد على العلامات المنقوشة على الصخور لايجاد دلالة تاريخية ، وذلك لأن تلك العلامات ترمز إلى معامل الحجارة المنحوتة فقط ، إذ كان لكل ناحت حجارة علامة خاصة به . وبعض تلك العلامات يقرب رسماً من الحروف اللاتينية أو الليبية أو اليونانية . إلا أنها لا تمت إلى الحروف الهجائية بأي صلة .

والنص القديم ، الأول والوحيد ، الذي وصل إلينا ، عن هذا المبني ، مؤلف لاتيني يدعى بمبونيوس ميلا POMPONIUS VARONAUGUSTE يرجع تأليفه إلى حوالي سنة 40 بعد الميلاد . أي إلى عهد استيلاء الرومان على مملكة موريطنانيا (1) ، وتحويتها إلى ولاية رومانية . يقول بمبونيوس ميلا في الفصل السادس (ورقة 38) من كتابه : « يول (شرشال) على شاطئ البحر ، مدينة كانت قديماً مجهولة . وأصبحت الآن مشهورة ، بما كانت عاصمة الملك يوبا ، وباسم قيسارية الذي تدعى به ، ويليها ، من هنا ، بلدة كرتينا (تنس) وأرسناريا وقصر كويزا ،

1 - موريطنانيا في العصر القديم ، كلمة يقصد بها المغرب الأوسط والمغرب الأقصى .

واستمرت عادة بناء المشاهد من هذا النوع عبر العصر القديم كله ، فبنيت في القرنين الخامس والسادس للميلاد ، بناحية فرنندة (ولاية تيارت) ، الأضحة التي تدعى باسم الجدار ، وهي مبانٌ مشيدة على سطح مربع ، وذات مشرف على شكل هرمي ، وتحتوي أكبرها على دهاليز وغرف داخلية ، متصلة بعضها البعض . وهذه المباني التي تعد بالعشرات ، تقع في رؤوس المرتفعات ، وتنسب إلى أمراء من البربر ، ربما كانوا على الديانة المسيحية ، وكانت امارتهم تمتد نحو المناطق الغربية .

ب - التأثيرات الأجنبية :

تشيد هذا النوع من الأضرحة يرجع إلى أصول هندسية خاصة بشمال إفريقيا . إلا أنها نلاحظ زيادة على ذلك في الضريح الملكي ، نوعاً من التقني في الهندسة والنقوش والزخرف يشهد على تأثيرات خارجية . وقد قارن السيد سلام شكل زخرف الأبواب الوهمية بشكل زخرف نصب فينيقي بدلس . وهذا يعنينا إلى ضرورة الرجوع إلى الآثار الفينيقية ، لفهم بعض المظاهر الزخرفية للمبني .

أما تيجان الأعمدة في قبر الضريح ، فهي تمت إلى تاج العمود اليوني الأغريقي (القرن الرابع ق . م) وتحتوي على حلزوتين متصلتين بواسطة قناة ، تحتها عقد ورود . ويرى ستيفان قزال أن تيجان الأعمدة اليونانية في الضريح الملكي ، ذات طابع قديم ، فالقناة التي تصل بين الحلزوتين مستديرة من أسفل ، عوض أن تكون مستقيمة مثل تيجان الأعمدة اليونانية السابقة للحروب الميدية . وكانت الهندسة الكلاسيكية قد تركت الخطوط المستديرة ولم يتماد في صنع تيجان الأعمدة اليونانية إلا بعض المعامل . وقد بقي بعضها بقرطاجة إلى تخريبيها في القرن الثاني ق . م

ويظهر من كل ما سبق ، أن المشكل التاريخي المطروح حول قبر الرومية ، معقد جدا .

8 - المطبيات الفنية والمعمارية :

ولا يمكن التوصل إلى بعض المعلومات ، واتخاذ موقف في توقيت نصي للمشهد ، الا عن طريق العناصر الهندسية :

١ - شكله :

أما عن كونه قبرا ، فهذا يستخرج من النص المذكور سابقا ، ومن توجيه المبني وهيكله العام ، الذي يذكرنا بالقبور الأفريقية العديدة . وهذه القبور التي تسمى بازينا Basinas تتألف من أكdas حجارة توضع لأجل حفظ رمس ، وفي وسطها معزبة لا يتعدى حجمها حجم تابوت .

وهذه المباني منتشرة جداً في شمال إفريقيا ، وإذا كان قد طرأ بعض التغيير على شكلها الخارجي ، فإن هيكلها لا يزال على حاله : أكdas من حجارة توضع بنظام معين ، فوق الدفين . وقد سبق لنا أن أشرنا إلى ضريح المدغاسن ، الذي يوجد بمنطقة الأوراس قريباً من مدينة باتنة وذكرنا أنه على مثال الضريح الملكي ، وإن كان يظهر مختلطاً عنه من حيث الشكل والزخرف الخارجي والهيكل الداخلي .

وقد اكتشف ضريح أكثر تعقداً منذ سنوات قليلة في مصب نهر تافنة ، على بعد بضع كيلومترات من سيقا ، العاصمة القديمة للملك البربرى سيفاكس Syphax وهذا أيضاً على شكل مخروط مثل المدغاسن والضريح الملكي ، ويقع كذلك على قمة ربوة .

وقد يكون المدغاسن أقدم من الضريح الملكي ، وتاريخ تشييده أشد تعلقاً بالأسطورة فقد روى أنه من عمل أحد الملوك .

الحجارة من النوع الجيد ، ومع ذلك ، فانها تحت نحتا فنيا دقيقا . وكان مهندس الآثار التاريخية ، المشار اليه سابقا ، يتعجب أمام هذا العمل المتقن ، وذلك لأن الحجارة كانت تشد شدا وثيقا بواسطة قطع من رصاص . ويمكن استبانته دقة الصنع بالنظر الى موائل الصخور ، والشكل العام الذي يظهر من ترتيبها . ثم ان ضخامة المبني تقضي وجود يد عاملة كثيرة العدد وماهرة ، ولم يكن ممكنا جلبها من مناطق بعيدة . وبالقرب من الضريح بلدتان مشهورتان هما تبيازة وايول (شرشال) . ولاشك أن تبيازة كانت في القرنين الثاني والأول مدينة هامة . فكان في استطاعة أغنى وأوجه سكانها أن يفكروا في تشييد مثل هذا الضريح . وقد أثبتت الباحثون حيوية تبيازة ، وبالخصوص تأثير الحضارة الفينيقية بها قبل الاحتلال الروماني ، فقد اكتشفت قبور فينيقية منذ آخر الحرب العالمية الثانية ، كما أفادت الأبحاث معلومات عن المجتمع الافريقي في العهد الفينيقي .

وهذا القبر أثر افريقي اعتبره سطيفان قزال « بناء من الطراز الأهلي مغطى بقميص يوناني » .

والمقصود من هذه العبارات أن الأفارقة هم الذين بنوا الضريح الملكي ، كما بنوا الأضرحة التي سميت « بازينا » ، مع اضافة عناصر زخرفية مستوردة من العالم اليوناني ، إذن فان أولئك الأفارقة كانوا على علم بالفن الزخرفي المنتشر آنذاك في حوض البحر الأبيض المتوسط . وهذا العنصر الفني على جانب كبير من الأهمية لأنه يدل على وجود مجتمع افريقي متطور متفتح للتأثيرات الخارجية .

وفي هذه الآثار ، وكذلك في المدغاسين وضريح الخروب ، المسماى قبر ماسينيسا ، أجاد المهندسون المعماريون والصناع

، ويوجد حنية خفيفة فوق الأفاريز التي تعلو الأبواب الوهمية والأعمدة ، بينما فوق أفاريز المدغاسن حنية نافرة ، جعله يحمل اسم « العنق المصري » .

أما قواعد الأعمدة ، التي تحتوي على قولبين طوقيين مستديرين ، فتسمى « قواعد أتيكية » (1) وهي كثيرة في رسوم الأنصاب الفينيقية للقرنين الثالث والثاني قبل الميلاد ، وهكذا ، فإن الزخرف الخارجي ينفي اتساب القبر إلى يوبا الثاني . وقد اتخذ هذا الموقف سطيفان قزال « مع شيء من الأسف » كما قال ، ووجه نظره إلى زمن أبعد ، للبحث عن ملك بربري يمكن أن ينسب إليه أثر تاريخي ضخم وجميل ، فتساءل هل يكون ذلك الملك بو كوس Bochus الذي عاصر يوليوس قيصر وكانت عاصمته يول ، أي قيصرية فيما بعد ، أو بو كوس القديم ، الذي تملك حوالي 105 ق . م .

فالمشكل ، كما يلاحظ القاريء ، لازال مطروحا : في عهد أي دولة بربرية أسس هذا المشهد ؟

9 – المعطيات الهندسية :

انه لسؤال محير اذا ليس لدينا من المعلومات ما يساعدنا على الاجابة عليه ، وليس لدينا من وسائل البحث الا المعطيات التي تستخرجها من الطرق المتبعه في البناء .

فماذا عسانا نعلم ، من هذا المبني عن الهندسة الافريقية حوالي القرنين الثاني والأول قبل الميلاد ؟

لقد جلب الصناع ، الذين عملوا في تشييده ، والحجارة من المحاجر الرملية الموجودة في الساحل المجاور . وليست تلك

1 - نسبة الى اتيكا وهي احدى مناطق اليونان القديمة .

المصادر

BIBLIOGRAPHIE SOMMAIRE

- بمبونيوس — De Situ Orbis, chap. IV. — 1 . جوداس — 2

A. Judas. — Notes sur l'origine du nom du Kber er-Roumia dit Tombeau de la Chrétienne. — 2

A. Berbrugger. — Le Tombeau de la Chrétienne d'après Shaw et Bruce, dans Revue Africaine, t. X, 1866, p. 441-450. — 3

A. Berbrugger. — Rapport des travaux exécutés au Tombeau de la Chrétienne, dans Revue Africaine, t. XI, 1867, p. 39-48. — 4

A. Berbrugger. — Le Tombeau de la Chrétienne, mausolée des rois mauritaniens de la dernière dynastie, Blida, 1867. — 5

De Laurière. — Deux mausolée africains, dans Bulletin Monumental, 5, série, 1876, p. 305-346. — 6

A. Caisse. — Le Tombeau de Juba II dit Tombeau de la Chrétienne, Blida, 1892. — 7

St. Gsell. — Le Tombeau de la Chrétienne, dans C.R. du XIV^e Congrès de l'A.F.A.S., Carthage, 1896, t. II, p. 767-778. — 8

St. Gsell. — Promenades archéologiques aux environs d'Alger, Alger, 1896, p. 157-182. — 9

St. Gsell. — Les Monuments antiques de l'Algérie, Paris, 1901, t. I, p. 69-74. — 10

St. Gsell. — Histoire ancienne de l'Afrique du Nord t. VI, p. 266-273. — 11

St. Gsell. — Marques du Tombeau de la Chrétienne dans Bulletin archéologique du Comité, 1899, p. 441-443. — 12

A. Ballu. — Rapports sur les travaux du Service des Monuments Historiques de l'Algérie, 1918-1923 (travaux dirigés par M. Christofle). — 13

H. Pamar. — Etudes sur le Médracen (Tombeau de Syphax), et le Kber-er-Roumia (Tombeau de la Chrétienne), dans Revue Africaine, t. LXI, 1921, p. 279-294. — 14

G. Weltzer. — Zwei worrelische grabbatten in Nord-Africa, dans M.H. des Arch. Inst., R.A., t. XLII, 1927, p. 84. — 15

M. Christofle. — Le Tombeau de la Chrétienne, Paris, 1951. — 16

P. Romanelli. — La tomba della christiana e il suo mistero, dans archologia classica, t. IV, 2, p. 274. — 17

F. Reymiers. — Métrologie du Tombeau de la Chrétienne, Cherbourg, 1953. — 18

P. Salama. — Tombeau Royal Mauritanien, dans Revue du Ministère du Tourisme, n° 4, 1967. — 19

الذين عاشوا أيام المالك المستقلة ، في العصر القديم ، في خلق انسجام بين الأساليب المحلية والعناصر الخارجية .

فكان قبر الضريح الملكي ، الذي بني قبل الاحتلال الروماني ، دليلاً قاطعاً لوجود مجتمع افريقي متطور اقتصادياً ، قادر ، بفضل اتصاله بالحضارة الفينيقية ، على ابداع فن أصيل .

ويطرح المدغاسن في ناحية قسنطينة ، نفس المشكل . فصورته تذكّرنا بصورة الضريح الملكي ، الا أنه أشد اكتئازا وأصغر منه ، فعلوه لا يبلغ الا 1850 مترا وقطر دائرته 12 مترا .

والذي يهمنا هو تشابه الآثرين في تصميمهما ، اذ هما معا على شكل مخروط يعلو بناء أسطوانيا مزدانا بأعمدة ، ولا اختلاف بينهما الا فيما يرجم الى الترتيب الداخلى .

10 - الخاتمة :

وبعد ، فقد اتضح الآن لنا بعض النقاط . فلا شك أن
الضريح الملكي الموريطاني ضريح أسرة ملكية نوميدية أو
موريطانية ، أنفقت أموا لا طائلة في سبيل دفن أعضائها ، في إطار
لا يختلف عن التقاليد المعهودة آنذاك .

ثم ان جميع الابحاث الحديثة التي أجريت داخل القبر تبني وجود غرفة سرير فهـ .

الا أن أبرز جانب يتجلّى للزائر هو اتسام هذا الأثر الافريقي، الذي لا يخلو جماله عن البساطة والروعة ، بطبع الوجود . وهذا الطابع يجعل من الضريح الملكي ، بما يحمله في أحضانه من جلال وأسرار ، أثرا من أجل الآثار التي تركها الانسان في شمال افريقيا .

تعريف عبد الحميد حاجيات

sur un cylindre décoré par des colonnes. Seul l'agencement intérieur diffère. Au Médracen il n'y a qu'une seule galerie et un seul hypogée.

Il y a une grande analogie de forme et de destination entre ces deux monuments (fig. 14).

Certains points sont maintenant éclaircis.

10. - Conclusion.

Le Mausolée Royal de Maurétanie est certainement le mausolée d'une famille royale numide ou maure qui s'est fait enterrer richement mais dans un cadre qui ne rompait pas avec la tradition. Toutes les récentes recherches menées à l'intérieur du Tombeau semblent bien répondre par la négative à l'hypothèse d'une chambre secrète.

Mais le caractère le plus frappant reste la présence de ce monument africain attachant par sa beauté sobre et grandiose, présence à la fois majestueuse et mystérieuse qui fait du Tombeau un des plus beaux vestiges du passé humain de l'Afrique du Nord.

MOUNIR BOUCHENAKI

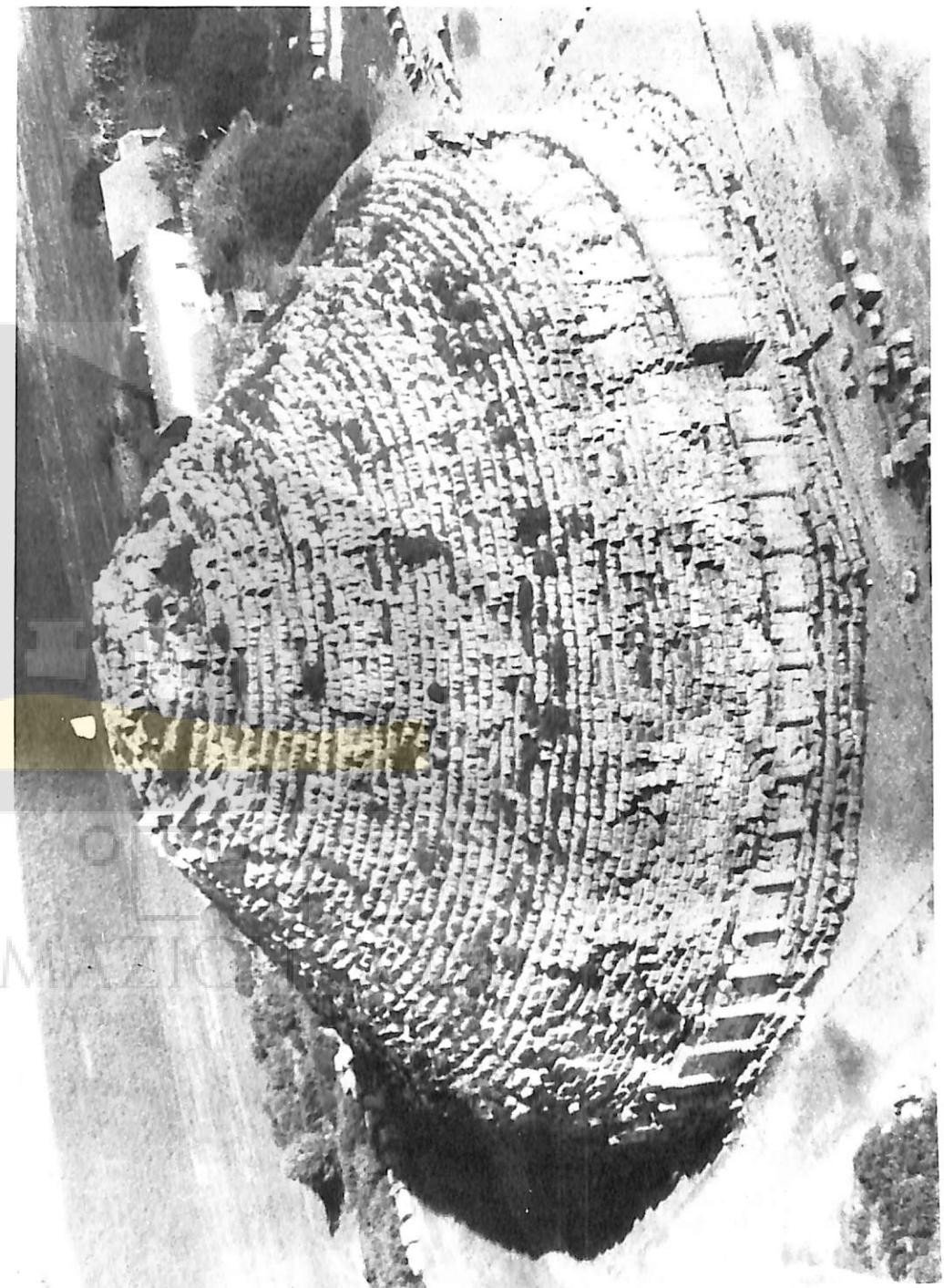


Fig. 14. — Vue aérienne du Mausolée Royal.



Fig. 12. — Courbure du couloir avant l'arrivée au caveau central.

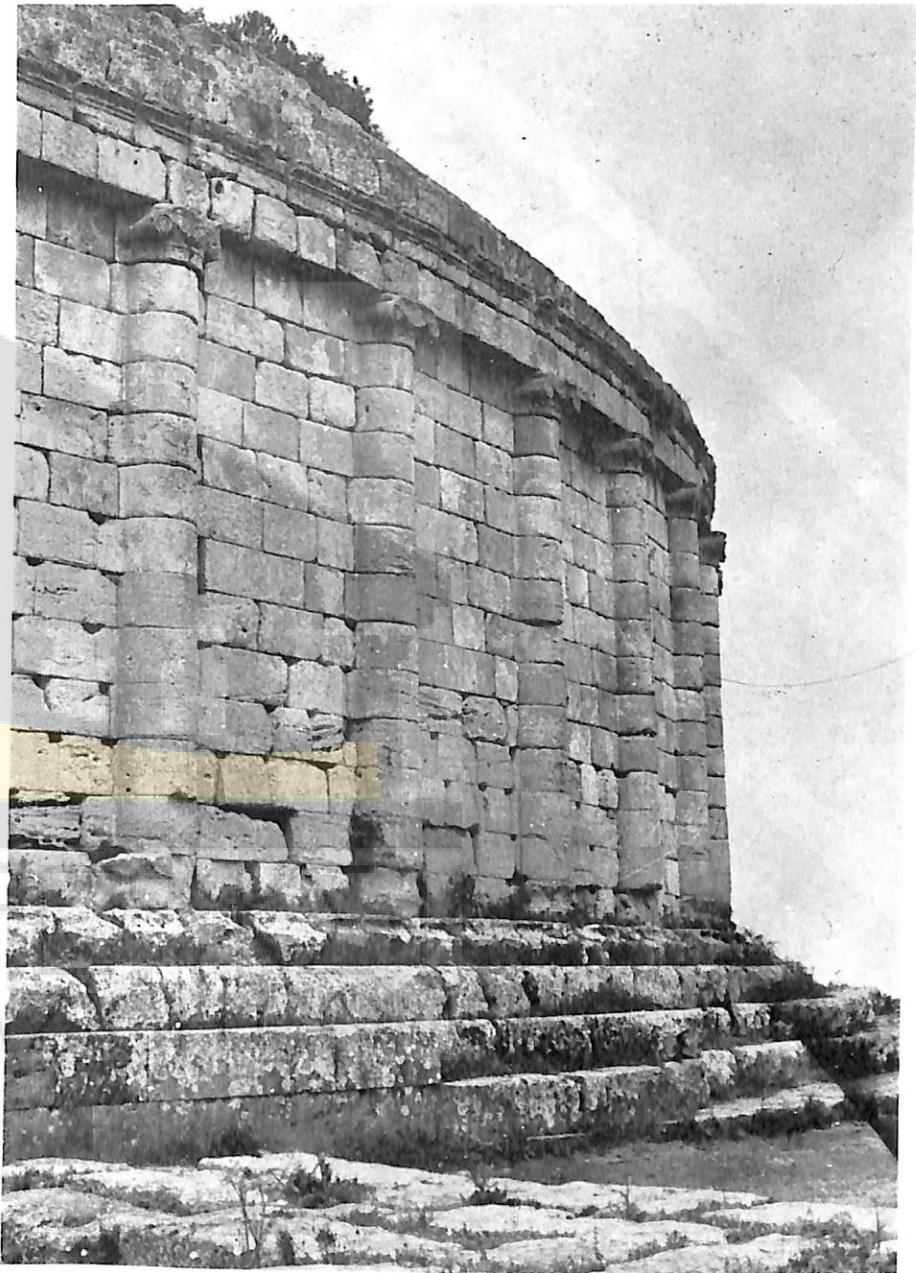


Fig. 13. — Agencement des blocs du parement extérieur.



Fig. 11. — Chapiteaux de style ionique au-dessus des demi-colonnes engagées.

Les artisans qui ont travaillé à la construction de ce monument ont emprunté les pierres aux carrières de grès provenant de la côte proche. Ces pierres gréseuses ne sont pas de très bonne qualité et pourtant elles ont été finement et artistiquement taillées. L'architecte des Monuments Historiques que nous avons cité plus haut s'émerveillait devant la perfection du travail : par un système de queues d'aronde en plomb les pierres étaient solidement liées les unes aux autres. L'on peut bien se rendre compte de cette finesse du travail en regardant les joints entre les différents blocs et la ligne générale qui s'en dégage (fig. 12 et 13). L'énormité même du Tombeau suppose la présence d'une main d'œuvre considérable et habile. Celle-ci ne pouvait pas venir de très loin. Tout près se trouvent les cités bien connues de Tipasa et d'Iol (Caesarea - Cherchell). Au II^e ou au 1^{er} siècle avant J.C. Tipasa était une cité. Certainement les plus riches et les plus hauts placés parmi les habitants pouvaient envisager la construction d'un tel tombeau. La vitalité de Tipasa avant l'arrivée des Romains et surtout l'influence de la civilisation punique ne sont plus à démontrer. Des tombeaux de type punique ont été découverts depuis la fin de la dernière guerre mondiale et de plus en plus, les recherches entreprises ont apporté des précisions sur la société africaine à l'époque punique.

Or, ce tombeau est un monument africain. St Gsell a bien dit à son sujet « construction de type indigène, il est couvert d'une chemise grecque ».

Cela sous-entend qu'il fut élevé par les Africains, comme pour les sépultures appelées basinas, avec en plus des éléments décoratifs appartenant au monde hellénistique. Ces Africains connaissaient donc l'art décoratif du bassin méditerranéen. Cet élément artistique est très important car il implique l'existence d'une société africaine évoluée et surtout ouverte aux influences extérieures. De même qu'au Médracen ou au Tombeau du Kroubs, tombeau dit de Massinissa, architectes et artisans vivant à l'époque des royaumes indépendants de l'Afrique antique, ont su marier les traditions locales et les apports externes. Construit bien avant la colonisation romaine, le tombeau de la Chrétienne présente la preuve de l'existence d'une société africaine évoluée du point de vue économique et qui, grâce au contact de la civilisation punique, a pu faire une création artistique originale.

Le Médracen pose, dans le Sud Constantinois, le même problème que le Mausolée Royal. Sa silhouette évoque irrésistiblement celle du Tombeau, mais il est plus tassé et surtout plus réduit.

Il n'a que 18,50 m de haut et son diamètre est de 58,86 m (fig. 10).

C'est ce qui est capital : les deux monuments ont été conçus sur le même plan. Ce sont l'un et l'autre un cône de gradins posé



Fig. 10. — Le Médracen, Mausolée Numide du III^e siècle avant l'ère chrétienne.

La construction de ce type de sépulture est donc de tradition purement Nord-Africaine. Mais on remarque en plus, dans le Mausolée Royal une recherche architecturale, ornementale et décorative, qui témoignent d'influences extérieures au Maghreb. M.P. Salama a comparé le motif décoratif des fausses portes à celui que l'on peut voir sur une stèle punique de Dellys. C'est donc vers le monde punique qu'il faut regarder pour comprendre certains aspects décoratifs du monument.

Les chapiteaux du Mausolée Royal de Maurétanie, variante du chapiteau ionique grec du IV^e siècle, possèdent deux volutes reliées par un canal au-dessous duquel se trouve un collier de rosaces. Selon St. Gsell, les chapiteaux ioniques du Tombeau ont un aspect archaïque (fig. 11). Le canal qui relie les deux volutes, au lieu d'être horizontal, s'incurve fortement vers le bas, comme sur des chapiteaux grecs antérieurs aux guerres médiques. L'architecture classique avait renoncé à cette moulure courbe, seuls quelques ateliers routiniers continuèrent à fabriquer des chapiteaux ioniques. Ainsi à Carthage, il en subsiste jusqu'à la destruction de la ville, au II^e siècle avant J.C.

Une légère moulure est représentée sur les corniches qui coiffent les fausses portes et les colonnes, à la différence de la moulure saillante formée par la corniche du Médracen à laquelle on donne le nom de « gorge égyptienne ».

Les bases de colonnes qui possèdent deux tores sont appelées « bases attiques ». Elles sont fréquentes dans les représentations des stèles puniques du III^e et II^e siècle avant J.C. En somme, la décoration extérieure a fait écarter l'appartenance du Tombeau à Juba II. St. Gsell l'a fait « non sans regret » et il a cherché à remonter plus haut dans le temps, pour l'attribuer à quelque roi Maure qui voulut un grand et beau monument : peut-être Bocchus, contemporain de Jules César dont la capitale fut elle aussi Iol, la future Césarée, peut-être Bocchus l'ancien qui régna autour de 105 avant J.C. ?

Comme on peut le constater le problème reste posé : à quelle dynastie berbère le tombeau fut-il élevé ?

A défaut de pouvoir répondre à cette question précise, qui est l'une des incertitudes qui demeurent sur ce monument, il convient de reconnaître humblement son ignorance, et de chercher à préciser toutes les données que nous fournissent les techniques de construction.

9. - *Les techniques de construction.*

Que nous apprend le monument sur l'architecture africaine aux alentours du II^e et I^{er} siècle avant J.C. ?

parce qu'elle se nomme Césarée. En deça, les bourgs de Cartenna (Ténès) et de Arsenaria, le chateau de Quiza, le golfe Laturus et le fleuve Sardabale. Au-delà, le mausolée commun de la famille royale... ensuite Icosium ».

Mentionnons toutefois, que, dans sa description du littoral de l'Afrique du Nord, cet auteur reproduit, avec peu de nouveautés, un livre plus ancien que St. Gsell attribue à Varron, mort en 27 avant J.-C.

La thèse historique présentée le plus fréquemment est celle qui attribue la construction du tombeau à Juba II et à sa femme Cléopâtre Sélénée, fille de la célèbre Cléopâtre, reine d'Egypte et du triumvir Antoine.

Le roi Juba II nous est présenté comme un souverain amateur d'art et de culture. Il a peuplé sa capitale, Cherchell, d'œuvres d'art choisies en Grèce et importées de là-bas.

Il régna, par la volonté de l'empereur romain Auguste, sur la Maurétanie pendant une longue période, de 25 avant à 23 après J.-C. Si la note sur le « monument commun de la famille royale » remonte à Varron, la thèse attribuant le tombeau à Juba II ne serait plus soutenable. Dans le cas contraire, la construction du monument se situerait entre le début et la fin du règne de Juba II. Les historiens depuis le début du siècle ont des avis partagés. Les uns préfèrent l'attribuer à Juba II, les autres lui donnent une date bien antérieure à ce roi. Il en est un fort célèbre, M.P. Romanelli qui s'est totalement écarté de ces deux tendances ; pour lui, le « tombeau de la Chrétienne » est un mausolée tardif qui pourrait même appartenir au 5^e ou 6^e siècle après J.-C. Il voit notamment en lui une réminiscence du mausolée circulaire d'Hadrien à Rome.

Une récente publication de M. GABRIEL CAMPS vient de relancer le débat à propos de la datation du Mausolée. En effet, un crampon de bois remis par M. CHRISTOFLE à M.G. CAMPS en 1962 a donné une date trop récente :

Cif 305 : 1660 + 120 soit 270 après J.-C. Je ne sais de quelle partie du monument provient le crampon, écrit M.G. CAMPS, peut-être des constructions rectangulaires situées à l'Est du monument, dans le prolongement de l'entrée et dont l'une est certainement plus récente que le reste du monument, peut-être des parties éboulées qui entouraient la masse du mausolée.

Si on ne rejette pas simplement cette datation, on peut supposer que ce crampon a été placé au III^e siècle après J.-C. au cours de travaux d'entretien. On sait combien est resté vivace, en effet, le culte des rois divinisés en Afrique ».

M.P. ROMANELLI a profité de cet article pour renouveler la discussion et le savant italien s'en sert pour confirmer une datation tardive du mausolée.

Comme on peut s'en rendre compte le problème historique posé par ce tombeau est complexe.

8. - *Les données architecturales et artistiques.*

Seuls les éléments stylistiques peuvent donner quelques renseignements et permettent ainsi d'avancer une datation relative.

Qu'il s'agisse bien d'un tombeau, on peut le déduire du texte ancien cité plus haut, mais aussi de l'orientation du monument, et de sa structure générale qui rappelle les innombrables tombes africaines. Composées d'un amas de pierres, préservant une tombe, avec au centre un caveau de la dimension tout au plus d'un cercueil, on les appelle des basinas.

Ces monuments, dont Maurice Reygasse a étudié le caractère dans son ouvrage (*Monuments funéraires préislamiques de l'Afrique du Nord*, Paris, 1950) et dont M.G. Camps a donné une étude magistrale (*Aux origines de la Berberie : monuments et rites funéraires protohistoriques*, Paris, 1961), sont extrêmement répandus à travers l'Afrique du Nord. Si leur aspect extérieur a varié, leur structure est toujours la même, amas de pierres plus ou moins bien ordonnées, recouvrant le corps du défunt. Nous avons dit plus haut que non loin de l'Aurès, près de Batna, le Médracen était un monument du même type que le Mausolée Royal, même si ses dimensions, sa décoration extérieure et sa structure intérieure le montrent assez différent (fig. 10).

Un mausolée plus complexe encore, a été découvert il y a peu d'années, à l'embouchure de la Tafna, à quelques kilomètres de Siga, l'ancienne capitale massyle du roi Syphax. Ce monument est également un tumulus de même contexture que le Médracen ou le Kbour, situé au sommet d'une colline.

Le Médracen paraît plus ancien que le Mausolée Royal et son origine est encore plus légendaire. La tradition l'attribue à un souverain. L'usage de construire des tombes de ce genre s'est poursuivi à travers toute l'antiquité, et c'est aux V^e et VI^e siècle après J.-C. que furent édifiés dans la région de Frenda, (département de Tiaret) les Djeddar, monuments construits sur plan carré avec un couronnement pyramidal. Les plus grands d'entre-eux renferment des couloirs et des chambres intérieures communiquant entre-elles. Au nombre d'une dizaine, ces édifices couronnent des sommets de collines. Ils sont attribués à des princes berbères peut-être de religion chrétienne dont les principautés s'étendaient vers l'Ouest.

Depuis bien longtemps des voleurs y sont entrés. Les premières violations du monument datent sûrement de l'antiquité. Il y a même eu des « fouilles », excavations à partir de la galerie intérieure du monument, pour retrouver une prétendue « chambre secrète ». Des excavations en forme de boyaux de mine ont été faites dans le but certain de retrouver les trésors dont parle tant la légende (fig. 9). L'une de ces « fouilles », longue de 7 mètres, part du fond du caveau des lions et se dirige vers le milieu du tombeau. L'autre, entamée dans la partie Ouest, débute dans la galerie dont elle se détache à angle droit, et atteint près de 16 mètres de longueur. Ces « fouilles » dont les traces sont encore très visibles de nos jours, ont dû être très dangereuses car elles perçaient le monument pour en rechercher le noyau, à travers de gros blocs. Le seul mérite qu'elles peuvent avoir pour l'archéologue, c'est la mise en évidence de la structure interne du monument : le monument circulaire est constitué par un remplissage de grands blocs quadrangulaires et de petits matériaux à la différence du Médracen qui a un remplissage hétérogène provenant des éclats de la taille ou d'apports extérieurs. Ces visiteurs indiscrets ont laissé des objets qui ont pu être datés avec certitude : ce sont des monnaies du 4^e et du 5^e siècle et des fragments de céramique d'époque tardive.

7. - Quand et par qui a été construit le Tombeau ?

Les premières tentatives de pénétration dans le tombeau doivent donc se situer dans une époque assez reculée, en tout cas, elle doivent être antérieures à la conquête arabe. Puis l'accumulation des terres s'étant effectuée, les abords de la petite entrée située en contrebas du sol, se sont rapidement comblés. Ce monument maintenant visité pose un problème historique important : quand et par qui a-t-il été construit ? Cet édifice n'est pas daté. Il n'y a aucun indice chronologique à tirer des marques qui sont gravées sur les pierres de taille et qui indiquent seulement les ateliers des tailleurs de pierre où chacun avait un signe particulier. Certaines de ces marques de tâcherons ont une apparence de caractères latins, libyques ou grecs mais ne sont pas pour autant des lettres alphabétiques.

Le premier et le seul texte antique que nous possédions, qui parle de ce monument, est celui d'un auteur latin POMPONIUS MELA. Son livre intitulé « De situ Orbis » a été rédigé aux alentours des années 40 après Jésus-Christ, c'est-à-dire à l'époque où le royaume de Maurétanie a été annexé et transformé en province romaine. Dans le chapitre 6, folio 38, du livre I de POMPONIUS MELA, on peut lire les lignes suivantes :

« Iol (Cherchell), sur le bord de la mer, ville jadis inconnue et illustre maintenant pour avoir été la cité royale de Juba et



Fig. 9. — Boyau creusé dans le Mausolée par les « fouilleurs clandestins »

en berceau et orientés Nord-Sud. Le second caveau, dénommé inexactement chambre centrale est orné de 3 niches sur chacune des parois Nord, Sud et Ouest. On se trouve au cœur du monument. Mais on y a absolument rien trouvé. Une impression de déception se dégage alors quand on pense à cette masse monumentale d'environ 80.000 m³, à cette galerie, à ces caveaux, à ces couloirs. Toutes les portes ont été trouvées brisées par Berbrügger, probablement depuis l'Antiquité. Le visiteur est en quelque sorte dérouté. D'où les problèmes qui ont été posés et les idées émises (voir plan ci-joint).

6. - Le problème du caveau central.

On a fait une entrée invisible. Est-ce pour dépister les voleurs ou pour obéir à des croyances et des usages séculaires ?

Il est probable que la galerie a été faite pour permettre le développement de processions rituelles célébrées lors des funérailles à l'instar des Egyptiens dans les pyramides.

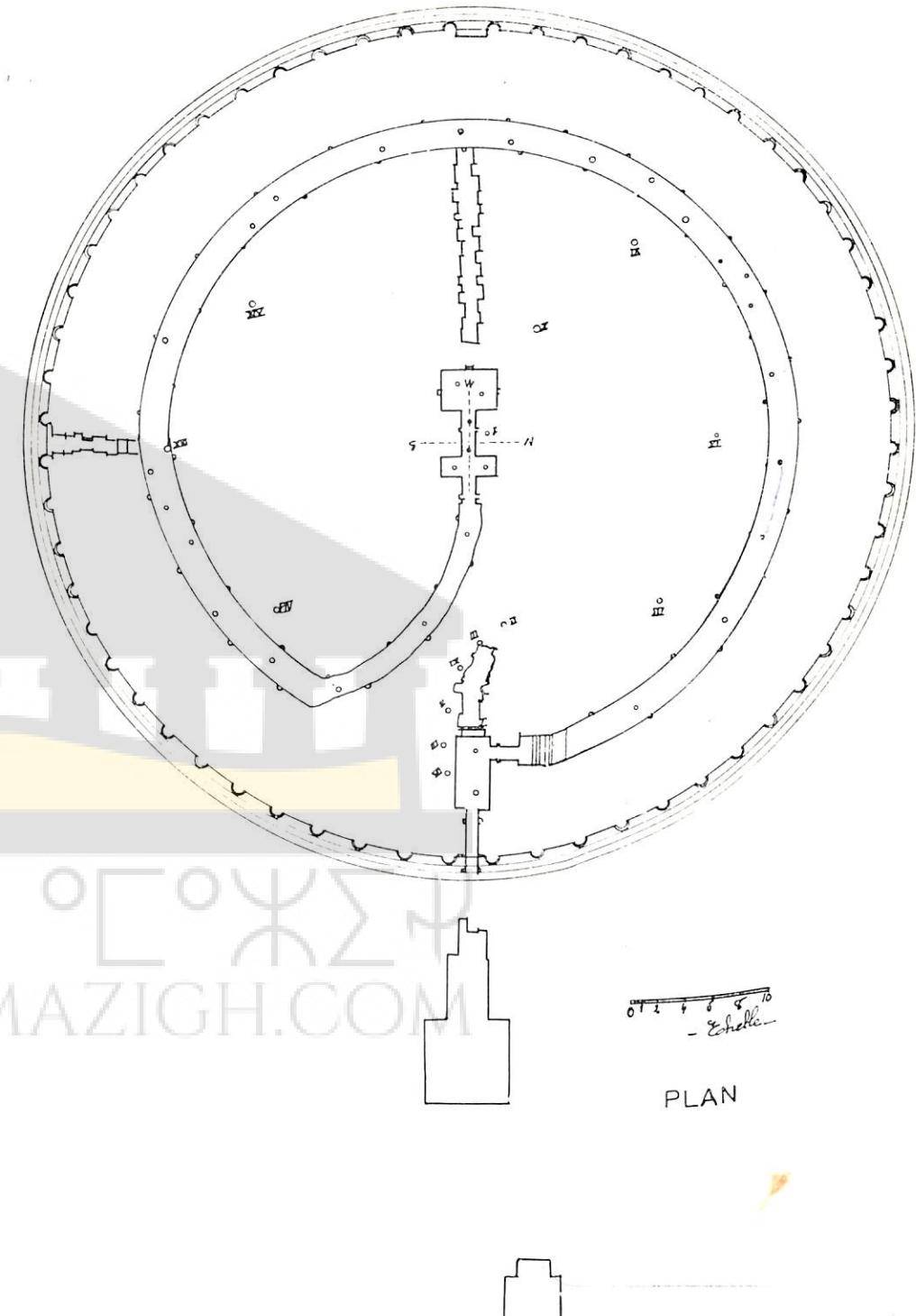
M. CHRISTOFLE, ancien architecte en chef des Monuments Historiques, à l'époque coloniale, a procédé, au Mausolée Royal, à d'importants travaux de restauration de la façade extérieure qui ont mis le monument dans un magnifique état. Parallèlement à une œuvre de consolidation et de restauration, M. CHRISTOFLE avait poursuivi de nombreuses investigations à l'intérieur du monument. Une partie de ses résultats a été consignée dans ses rapports et dans son étude sur « le Tombeau de la Chrétienne ».

Beaucoup de problèmes ont été soulevés. On affirme que la chambre centrale est la chambre funéraire du Tombeau. Diverses objections ont été présentées à ce sujet, notamment l'exiguïté d'un réduit peu en rapport avec l'importance du monument, et la disparition de tout appareil funéraire (sarcophage ou autre), alors que les portes d'accès n'offrent qu'un étroit passage. Il faudrait supposer que les cendres (s'il y a eu incinération) du ou des défunt(s) auraient été déposées dans les petites niches qui, au nombre de trois, décorent les parois de la chambre centrale. On pourrait y voir aussi la place de chandelles ou de lampes (fig. 8).

Une question a été souvent posée : le monument ne renfermerait-il pas, à la manière des monuments Egyptiens, une chambre secrète où l'on ne devait plus accéder une fois accomplie l'inhumation du personnage, à côté d'une chambre consacrée au culte funéraire et où l'on pouvait normalement pénétrer dans certaines circonstances ?

Cette question est posée depuis que l'intérieur du monument est connu.

Il y a encore beaucoup de gens qui accordent crédit à toutes sortes d'hypothèses romanesques et qui espèrent encore que le Tombeau réservera des surprises.



Plan du Mausolée.



Fig. 7. — Entrée au vestibule du caveau central

من مكتبة ساسي عابدي



Fig. 8. — Niche creusée dans la paroi du caveau central. Noter les graffitis dus aux visiteurs « inconscients ».

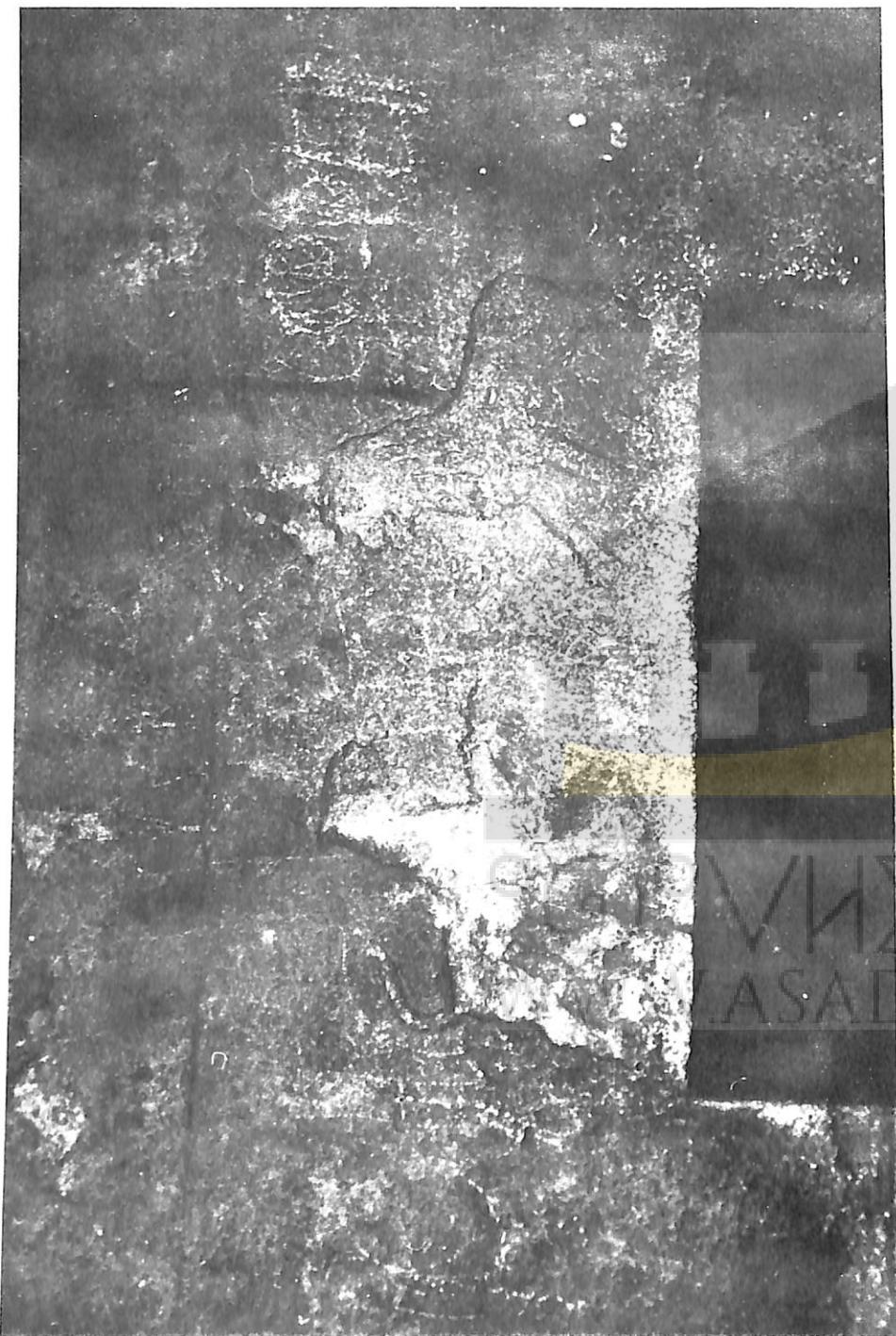


Fig. 5. — Lionne et lion affrontés au-dessus du couloir.



Fig. 6. — Niche creusée dans le mur du couloir.



Fig. 4. — Dalle coulissante en grès trouvée brisée.

L'entrée tant recherchée de ce tombeau se trouvait donc dans le soubassement du monument, au-dessous de la fausse porte de l'Est. Basse et étroite, la porte mesure 1,10 mètre de hauteur. Elle était fermée par deux pierres de taille, l'une sur l'autre, dont les lits étaient placés à la même hauteur que ceux des assises voisines. On ne pouvait donc distinguer ces 2 blocs des autres, autrement que par la disposition des joints. Une fois la porte franchie, on se trouve en face d'une dalle-porte s'engageant dans une rainure, en haut et sur les côtés. A l'aide d'un levier on pouvait soulever ou rabaisser cette sorte de herse. Berbrügger a trouvé cette porte brisée comme toutes les autres d'ailleurs (fig. 4).

5. - *Description du déambulatoire.*

Le couloir d'accès très bas et où il faut se courber pour avancer, se trouve au-dessous du niveau du sol, fermé par une deuxième herse. En arrière du couloir s'ouvre un vestibule : c'est un caveau voûté en berceau, long de 5,33 mètres, large de 2,52 mètres, et haut de 3,20 mètres. Sur le mur de droite, un lion et une lionne sont sculptés en relief sur la pierre, au-dessus d'une porte d'un nouveau couloir (fig. 5).

Cette sculpture a donné son nom au vestibule des lions. Difficilement interprétables, le lion et la lionne affrontés sont les seules représentations décoratives du Tombeau : les anciens leur assignaient le rôle de gardien de sépultures. Ces images sont très fréquentes dans les monuments du Proche-Orient antique.

Aussitôt après le second couloir, le plafond bas fait place à une voûte élevée et les parois s'écartent : on arrive à la galerie circulaire à laquelle on accède par quelques marches (7 escaliers).

La galerie voûtée en plein cintre qui vient après cet escalier mesure 141 mètres de longueur, sur 2 mètres de largeur et 2,40 m de hauteur. Elle pouvait être éclairée par des lampes, placées de 3 m en 3 m dans les 51 niches creusées dans les parois latérales (fig. 6).

Cette galerie est établie sur le sol de la plate-forme carrée qui supporte tout le tombeau, alors que le vestibule est en contrebas. De forme curviligne, la galerie tourne de la droite à la gauche, décrivant un cercle presque complet et, partant de la porte Est passe successivement derrière les fausses portes du Nord, de l'Ouest et Sud. Après ce dernier point, la galerie s'infléchit vers le centre du monument et arrive à une porte orientée elle aussi vers l'Est. Elle est fermée par une herse qui donne accès à un vestibule de 4,04 m de long sur 1,58 m de large, et 2,73 m de haut, d'où l'on pénètre, par un couloir surbaissé et une dernière porte munie également d'une herse, à un caveau de 4,04 de long, 3,06 m de large et 3,43 m de haut (fig. 7). Les deux caveaux sont voûtés



Fig. 3. — Motif en forme de croix d'où le nom légendaire du Monument

Il y a même une recette de sorcellerie pour s'assurer une fortune magnifique. On raconte aussi qu'un berger du voisinage avait remarqué qu'une de ses vaches disparaissait toutes les nuits. Le lendemain matin, il la retrouvait pourtant au milieu du troupeau. Un soir il résolut de la suivre : il la vit alors s'enfoncer par une ouverture qui se referma aussitôt. Le jour suivant, s'accrochant à la queue de la bête, il put entrer avec elle. A l'aube il sortit de la même façon mais les poches remplies d'or ; il devint l'homme le plus riche de la région. Ces légendes ont tellement impressionné les maîtres de la Régence d'Alger, que le pacha Salah Raïs, en 1555, a tenté de démolir le K'bour pour en enlever le trésor. Il l'a même fait battre au canon, sans autre résultat qu'abîmer la fausse porte de l'Est.

Un autre Bey, Baba Mohamed, au XVIII^e siècle, fit procéder à d'autres « fouilles » pour y découvrir des trésors. Les ouvriers qu'il utilisait en ont été « chassés par des moustiques devenus gros comme des oiseaux ». D'autres sources rapportent que les espoirs du Bey furent déçu ; la place de l'or escompté, ils ne rapportèrent que les crampons en plomb qui scellaient les pierres entre elles.

Un romancier, Pierre BENOIT, dans « l'Atlantide », évoque lui aussi le Tombeau de la Chrétienne :

« Il y a, au Sud de Cherchell, la ville de Césarée, à l'Ouest du petit fleuve Mazafra, sur une colline qui émerge, au matin des brumes roses de la Mitidja, une mystérieuse pyramide de pierre. Les gens du pays l'appellent le Tombeau de la Chrétienne. C'est là que fut déposé le corps de l'aïeul d'Antinéa, cette Cléopâtre Séléné, fille de Marc Antoine et de Cléopâtre. Placé sur le chemin des invasions, cet hypogée a gardé ses trésors. Nul n'a jamais su découvrir la chambre où repose le corps splendide dans son cercueil de verre ».

4. - *Les fouilles archéologiques.*

Les premières fouilles régulières furent effectuées par Adrien Berbrügger était alors « Inspecteur général des Monuments Historiques et des Musées archéologiques de l'Algérie ». Pour trouver l'hypogée, Berbrügger décida d'utiliser une sonde semblable à celles qui servent à forer les puits artésiens. Au bout de 4 mois d'efforts la sonde tomba brusquement de 2,65 mètres. Elle avait traversé un espace vide.

On perça alors un tunnel sous la fausse porte du Sud afin de rejoindre ce vide, et c'est par là qu'à l'époque moderne on pénétra, pour la première fois, dans une vaste galerie, très bien conservée. De là, les chercheurs ont abouti d'un côté à l'entrée véritable, percée sous la fausse porte de l'Est. De l'autre côté, on aboutit à deux chambres centrales. Mais les portes montées sur glissière étaient brisées et les chambres vides.

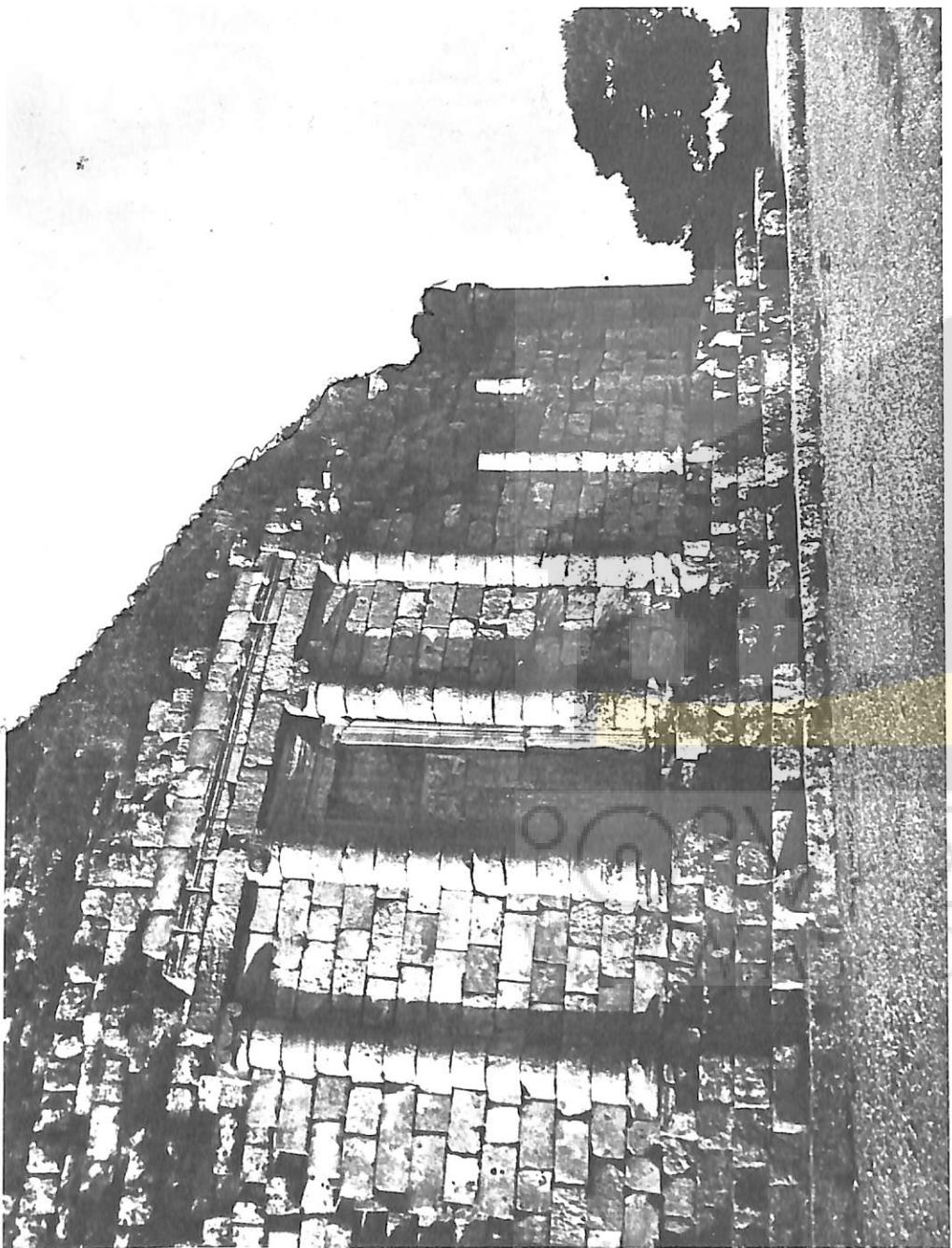


Fig. 2. — L'édifice repose sur des gradins en pierres de tailles.

Il n'y a rien dans ce tombeau qui rappelle l'époque chrétienne, et si la tradition veut que son nom soit Kbour-er-Roumia, l'explication se trouve probablement dans l'histoire du mot arabe (roumia) ; « Roum » voulait dire « romain » ou « byzantin » chez les Arabes, et d'autre part dans le motif de la croix. M. RAHAL ABOUBEKR a donné l'indication suivante à ce sujet : « en littérature arabe, le mot رومية avait deux acceptations, selon qu'il était employé en Orient ou en Andalousie. Dans le premier cas, il signifiait byzantin ou grec, dans le deuxième, chrétien ».

3. - *Ce qui a été écrit à son sujet.*

De tous temps, les hommes ont été curieux de savoir quelle était la véritable destination de ce monument. Renfermait-il des richesses qui ont été pillées depuis longtemps, ou bien garde-t-il encore jalousement son secret ?

Le Mausolée Royal de Maurétanie reste un gigantesque mystère. Evoquant cette énigme archéologique dans son ouvrage : « l'Algérie, terre d'Art et d'Histoire » H. BERQUE a écrit :

« Le Kbour-er-Roumia n'a pas épousé sa vocation historico-légendaire. Hanté de fantômes, riche d'éénigmes, et d'une silhouette trappue sous la lune berbère, il retentit de souffles romantiques. Par les nuits d'hivers, la galerie gémit et chuchote. Les pierres vibrent. Les lumières chancellent. Quel décor pour une intrigue de Walter Scott... quel thème pour des anticipations à la Wells, ou des préhistoires à la Rosny. Le Tombeau de la Chrétienne nous réserve encore de passionnantes coups de théâtre... ».

Depuis bien longtemps, des recherches d'abord officieuses puis officielles, ont été effectuées. Plusieurs livres ont paru ayant pour sujet le Mausolée Royal. Œuvres d'imagination ou travaux scientifiques, ils s'efforcent tous de percer le secret du Tombeau. Le géographe arabe du Moyen-âge, El-Bekri, en parle dans sa description de l'Afrique Septentrionale. Marmol, un officier de l'armée de Charles-Quint, qui fut en captivité à Tunis pendant huit ans, et visita l'Afrique du Nord, publia en 1573 à Grenade et en 1579 à Malaga, une « Description générale de l'Africa ». Au chapitre 34 du livre cinquième, il évoque le Mausolée Royal où, dit-il, est enterrée la fille du Comte Julien. Cette fille d'une rare beauté avait été séduite par le roi des Wisigoths. Pour se venger de cette insulte, le comte Julien aurait livré l'Espagne aux Arabes.

57 ans avant Marmol, un roi de Ténès écrivait à un général « Castillan » une lettre où il était question du « Kober Roumia ».

En 1738, Thomas Shaw, docteur en théologie, qui avait été pendant 12 ans chapelain de la factorerie anglaise d'Alger, situe le tombeau à 4 lieues au Nord-Est de Koléa.



Fig. 1. — Le Mausolée Royal de Maurétanie. (Vue de l'Est).

2. - *L'aspect extérieur du monument.*

Une fois au sommet de la colline, se dresse alors l'imposant monument sur une plate-forme artificiellement aménagée. Que peut-on dire alors sur cette construction qui a fait rêver et inspirer plus d'un écrivain ? Les seuls éléments précis en possession des chercheurs et des archéologues sont les proportions géométriques du Mausolée. Il s'agit en effet d'un énorme cylindre à facettes, coiffé d'un cône à gradins. Il est orné, sur son pourtour, de 60 colonnes engagées, surmontées de chapiteaux ioniques, supportant une corniche. Certains chapiteaux à volutes, de type ionique, peuvent être aperçus, gisant par terre auprès du monument.

L'ensemble de la construction est comme posé sur un socle carré de 64 mètres environ de côté. Ce socle dallé est lui-même posé sur un « béton » de petites pierres concassées et liées par une sorte de mortier qui n'est autre que la terre argileuse rougeâtre de la région. L'édifice lui-même repose sur une série de gradins en pierres de taille (fig. 2).

Les dimensions et les chiffres qui suivent font ressortir le caractère colossal de cette construction antique. Le Mausolée mesure 185,50 mètres de circonférence, 60,90 mètres de diamètre et 32,40 mètres de hauteur. La partie en forme de cône est formée de 33 gradins de 0,58 mètres de hauteur chacun. Elle se termine au sommet par une plate-forme. Ces chiffres sont encore plus évocateurs quand on songe que le volume du tombeau dépasse 80.000 mètres cubes.

Devant l'entrée du monument sont visibles encore des traces d'un avant-corps d'une construction longue de 16 mètres et large de 6 mètres, qui doit constituer probablement la base d'un temple ou d'un autel monumental.

Lorsqu'on le regarde de loin, le mausolée royal ressemble à une énorme ruche ou à une meule de foin. Mais dès que l'on se rapproche, on se rend compte alors de son imposante présence. Selon la saison et selon l'heure de la journée, il prend tour à tour une belle patine dorée ou gris pâle et même parfois bleuâtre dans la brume.

Il est caractérisé surtout par quatre grands panneaux en pierre, en forme de trapèze : ce sont quatre fausses portes de 6,90 mètres de hauteur, encadrées dans un chambranle et dont les moulures saillantes font apparaître une sorte de croix. Ces fausses portes sont placées aux points cardinaux.

Le Tombeau a été peut-être considéré comme un monument chrétien à cause de ce motif décoratif en forme de croix. Il n'en est rien. On a également pensé que ce dernier motif mal interprété avait été à l'origine de son nom légendaire de « Tombeau de la chrétienne » (fig. 3).

PATRIMOINE ARCHEOLOGIQUE DE L'ALGERIE

LE MAUSOLEE ROYAL DE MAURETANIE (1)

1. - *Situation.*

Il peut paraître assez paradoxal de revenir sur la description d'un monument qui semble connu du public. Pourtant, nombreux sont les visiteurs qui se posent encore des questions sur ce fameux mausolée, appelé à tort « Tombeau de la chrétienne », ou encore récemment dénommé « Tombeau de Cléopâtre Séléné épouse de Juba II ». De nombreux travaux effectués à proximité et à l'intérieur du monument n'ont cependant apporté aucune réponse nouvelle aux questions que se posent archéologues et historiens, depuis de nombreuses années.

Entre Alger et Cherchell, sur une des côtes du Sahel, s'élève le Mausolée Royal de Maurétanie, appelé traditionnellement « Kbourer-Roumia ». On peut y arriver en suivant la route qui, d'Alger conduit à Tipasa et Cherchell. Cette route court au pied des collines du Sahel occidental d'Alger toutes couvertes d'un manteau de vignes, de primeurs et de maquis vers le sommet. Pendant une cinquantaine de kilomètres, le rivage est dominé de près par cette longue croupe montagneuse qui sépare la mer, au Nord, de la plaine de la Mitidja, au Sud.

Au point culminant du Sahel, à 261 mètres au-dessus de la mer, se dresse le colossal monument visible aussi des hauteurs de Bouzaréah qui dominent Alger, visible surtout de la mer où marins et pêcheurs l'utilisent comme point de repère (fig. 1).

Pour se rendre au Mausolée Royal de Maurétanie, il faut quitter la route nationale, entre Bou-Ismaïl et Tipasa, au niveau de la ferme dite du « Rocher Plat », et grimper au sommet du bourrelet côtier, comme l'indique le panneau de signalisation. On peut également y aller en prenant la route de Koléa à Hadjout, au niveau du village de Sidi Rached.

(1) Nouvelle appellation appliquée au Tombeau dit de la Chrétienne autrement appelé Tombeau de Cléopâtre Séléné épouse de Juba II.

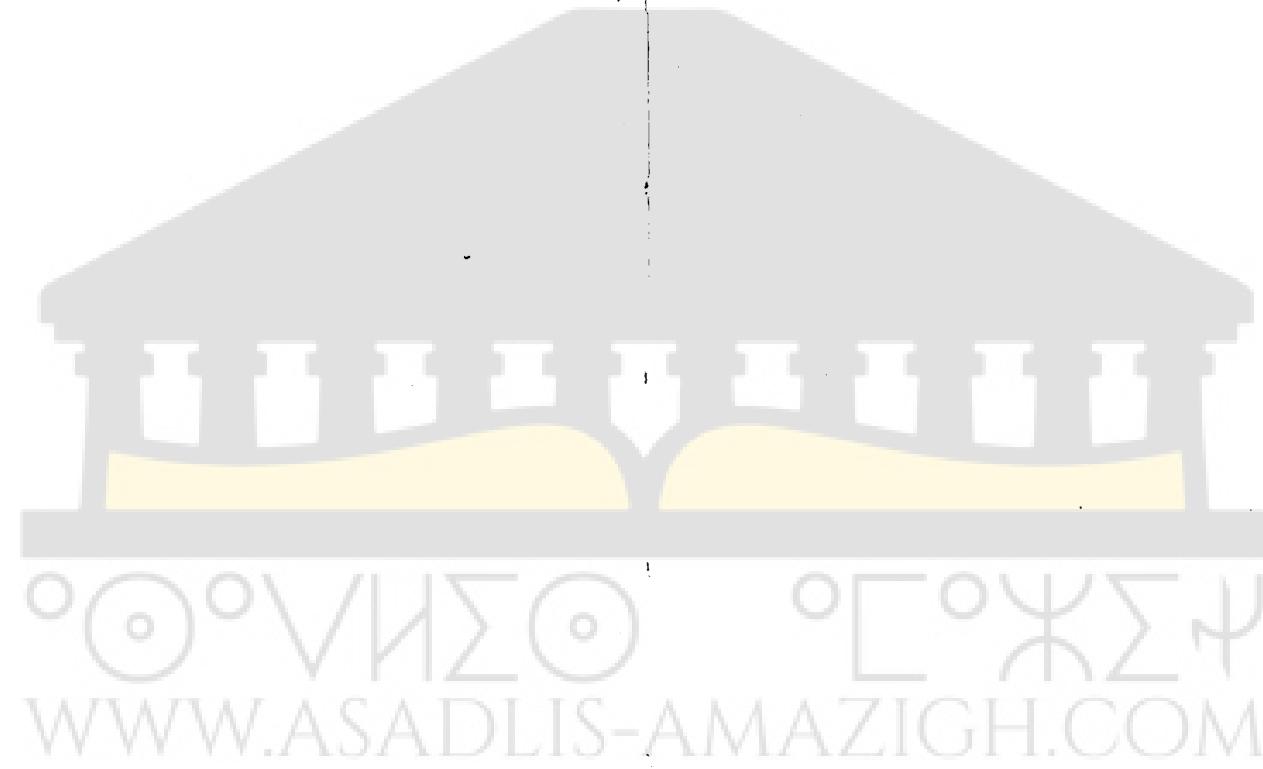
REPUBLIQUE ALGERIENNE DEMOCRATIQUE ET POPULAIRE
MINISTERE DE L'INFORMATION ET DE LA CULTURE



LE MAUSOLÉE ROYAL DE MAURÉTANIE

ASADLIS-AMAZIGH.COM

Direction des Musées de l'Archéologie et des Monuments et sites
Historiques
ALGER
1979



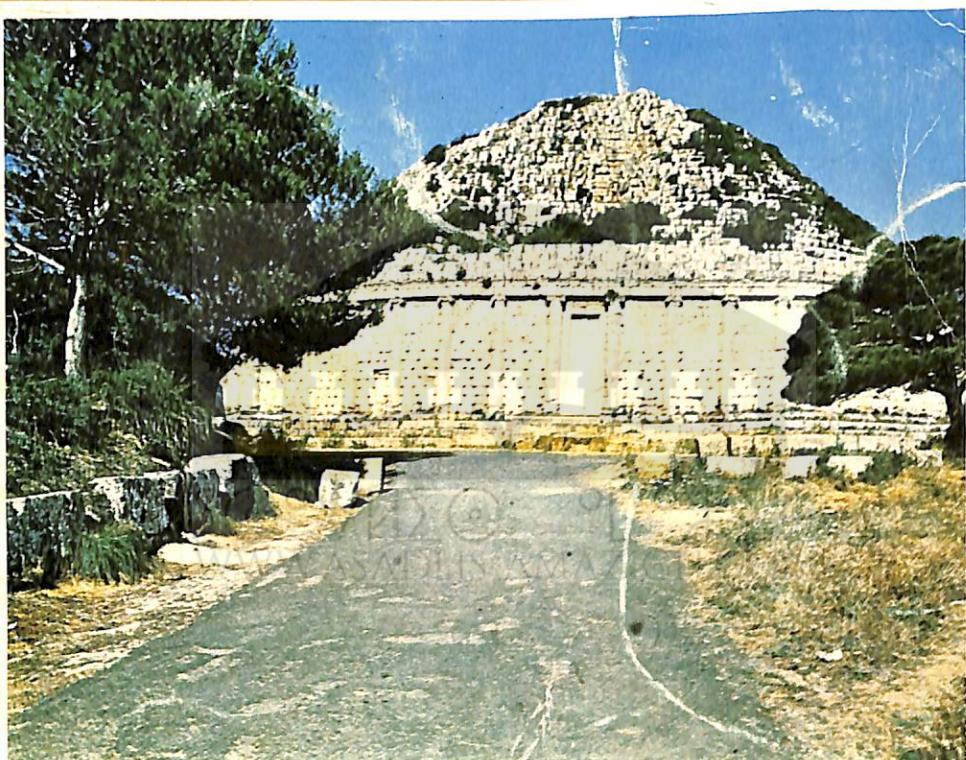
Achevé d'imprimer sur les presses
de la Société Nationale d'Edition et de Diffusion
3, Bd. Zirout Youcef - ALGER
(Imprimerie ZABANA)

Mounir BOUCHENAKI

Traduction en Arabe par
Abdelhamid HADJIAT

Ministère de l'Information et de la Culture

LE MAUSOLÉE ROYAL DE MAURÉTANIE



Direction des Beaux-Arts

Monuments et Sites www.sais-amazigh.com

الطبعة ساسي عابدي